الراحة والسعادة

بعض من لا مطامح لهم ولا آمال قانعون بما هم فيه، لا يتطلعون إلى خير منه، ولا يكلفون أنفسهم مشقة الطموح الى ما ليس في أيديهم، ولو كان مستطاعا مع الجهد والدأب، والحياة أمامهم هي هذا الواقع المريح الذي يتكرر كل يوم ولا يتغير شيء فيه أولا يكاد يتغير.

وبعضهم قريب المطامح صغير الآمال، تنحصر مطالبه في تلبية حاجات الحياة اليومية وتوفير وسائل راحة البدنية لشخصه أو لعائلته، لا تكترث مطالب عامة، ولا يعلق فكره بشؤون وطن ولا انسانية، والحياة عنده هي هذه المطالب الحيوانية أو الشبيهة بالحيوانية.

هؤلاء وهؤلاء مستريحون ولكنهم ليسوا بسعداء، والراحة غير السعادة، فالأولى مطلب متواضع يستطاع تحقيقه بأيسر مجهود وفي كل الأحوال، أما الثانية فمطلب عسير بعيد من مطالب أهل الجنة ومن مطامح الخلود.

والطموح والتطلع الى الآفاق الإنسانية العليا أمران متعبان حقا ولكنهما ضروريان لسعادة الفردية والقومية والإنسانية، لأن السعادة شعور عظيم لا يتهيأ الإحساس به لذوي النفوس الصغيرة والوحدات المطموسة، وهؤلاء قد يعيشون في راحة ولكنهم يبعدون عن السعادة الحقيقية بمقدار ما يستمتعون به من الراحة البليدة.

ومن المؤكد أن الجهاز النفسي الذي يستطيع تذوق السعادة بدقة وإتقان هو الذي يستطيع تذوق الآلام بنفس الدقة ونفس الاتقان.

أما الجهاز النفسي المعلق دون الإحساس بالألم فهو كذلك مغلق دون الإحساس بالسعادة، والشأن في هذا شأن الحواس، فالذوق الحساس بالطعوم هو الذي يتذوق الجيد من الطعام أحسن تذوق ويصح كذلك بالرديء، والآذن التي تستمتع بالصوت العذب هي التي تتألم من الصوت الكريه، والعين التي تدرك محاسن الصور ومواقع الجمال هي نفسها التي تدرك مقابح النظر ومواطن التشويه.

أما الحاسة التي لا تنفر من القبح ولا تتأذى به، فهي التي لا تلتفت الى الجمال ولا تستطيبه وطبيعة الإحساس بالشقاء والسعادة واحدة في جوهرها كطبيعة الإحساس بالقبح والجمال.

ويحسن هنا أن ننبه إلى أن الطموح شيء غير القلق، وأن الرغبة فيما هو أفضل ليست هي الحسد والتطلع الى ما في أيدي الناس، أو إلى ما لا يستطاع تحقيقه من الخيالات والأوهام. إنما الطموح هو الرغبة المصحوبة بالعمل لتحقيقها، وهو الشعور بالكفاية الشخصية لتحقيق

ما تسمو اليه النفس والارتياح لهذا الشعور ولنتائجه العملية ، أما القلق والسخط و تطلع إلى ما فى أيدى الناس ارتكانا على الأمانى والآمال ، فشىء آخر غير الطموح ، و بضاعة من بضائع العجزة لا تؤدى الى راحة ولا الى سعادة .

والمجتمع والوطن — بل الإنسانية — فى حاجة الى الطموح والتطلع لا الى راحة والانكماش ومطلب الراحة هو أرخص المطالب التى يرفو اليها الفرد أو الجماعة ، وهو المقياس الذى لا يخطئ فى قياس حيوية الأفراد والشعوب وستعد دهم للسير فى المعترك العملى الذى لا مكان فيه لقانع أو مستريح .

وقد درجنا فى مصر على فهم خاطئ للقناعة وللسعادة ، فالقنوع عندنا هو من لا يطلب المزيد ولا يتطلع إلى جديد على أى وضع من الأوضاع ، والسعيد كذلك هو المستريح وبوكانت راحة البلادة وعدم الاشتغال بغير الطعام والشراب .

وكان لهذا الفهم الخاطئ أثره السيئ فى نفوس الأفراد والجماهير ، فقليل عندنا من يتطلعون الى الرقى و يعملون له بجد مؤثرين ذلك على الانكماش والراحة ، وقليل كذلك من يشغلون أنفسهم بالمسائل العامة و يعلقون تفكيرهم بشئون الوطن والإنسانية و يجعلونها شؤونهم الخاصة التى تهمهم وتشغلهم .

وقد نتج من ذلك أن يوصم المتطلعون الطامحون بالطمع والأثرة ، وأن يوصم المشتغلون بالمطالب العامة والهموم الإنسانية بالخيال أو بالجنون !

وعلى ذكر الخيال نذكر أنه أداة ضرورية للانسانية وليس عيبا ولا نقصا ، فالفرد الذى لا يتخيل لا يعمل ، والأمة الكليلة الخيال هى الأمة الضعيفة المطامح القليلة الآمال .

ونحن فى حاجة الى الخيال يمدنا بالمطامح البعيدة و الآمال العريضة ، ولكن على شرط ألا يكون كخيال المخدرين و وساوس المخمورين ، فتلك علامة الصحة والسلامة أما هذه فشارة المرض والاختلال .

والخلاصة أنه يجب التفريق بين الراحة والسعادة ، و بين الطمع والطموح ، وعلينا أن نجتنب الراحة المنبعثة عن الضعف والانكماش كما نتجنب الطمع المؤذى المنبعث عن الحسد والأنانية .

ولنعود أنفسنا احتمال الآلام فى سبيل نطموح نحصل على السعادة فى نهاية المطاف وليست هذه الآلام الطارئة إلا ضريبة السعادة الحقة .